

الدكتور نوري جعفر

- ١ -

سأتناول في هذا الحديث - بأقصى حد من الايجاز والتركيز طبيعة قصص (بفتح القاف وفتح الصاد الاولى) الخيال العلمي من حيث النشوء والتطور ومن ناحية جوانبه الاجتماعية (الفلسفية والاخلاقية) مع اشارات عابرة بين حين وآخر الى قضايا أخر ذات علاقة بها بهذا الشكل او ذاك .

- ٢ -

تقابل كلمة « قصص » باللغة العربية كلمة Fiction باللغة الانكليزية (وهي اللغة التي استقيت منها محتوى هذا الحديث الموجز) . والمصطلح الانكليزي هذا الذي يستخدم بصيغة المفرد دائماً ولا يجوز استعماله مطلقاً بصيغة الجمع له ارتباطات متعددة - من حيث المعنى - بمصطلحات كثيرة أخر سأذكرها بعد قليل . وله ايضاً روابط تاريخية من حيث اللفظ ذاته (مع اختلاف المعنى) بمصطلح Fiction الذي له دلالة اخرى لا علاقة لها بالخيال العلمي من قريب او بعيد لكون المصطلح يستخدم في مجال القانون والتشريع الانكليزي .

اما المصطلحات الأخر ذات المعنى الغريب بمصطلح Fiction - باللغة الانكليزية - فهي كثيرة أبرزها مصطلح « رواية » Monel ومصطلح « الرواية الغرامية » Nomanee : من ناحية ظاهرة الخيال المشتركة بينها او من ناحية الابتعاد (ذهنيا) عن الواقع المحسوس .

كما ان مصطلح Fiction (قصص) له روابط ايضاً - من حيث المعنى - بمصطلحات أُخَر باللغة الانكليزية نكتفي هنا بمجرد الاشارة الى اهمها :

« قصص خرافية : بكسر القاف في قصص) :
Fainy Tales و« خرافة »
Myth و« اسطورة » Falle او .Legemd

ومع ذلك فان الطابع المميز لمحتوى ادب قصص الخيال العلمي نابع في الاصل - كما سنرى - من العلم بهذا الشكل او ذاك والى هذه الدرجة او تلك ومرتبطاً به ارتباطاً عضوياً او عارضاً بنظر اصحاب الاختصاص .

اما الظواهر التي تشير اليها المصطلحات الأُخَر - المار ذكرها - فليست بذات صلة بالعلم من قريب او بعيد : العلم النظري ومنجزاته التكنولوجية التي يتخذ منها المختصون بأدب قصص الخيال العلمي منطلقاتهم الفكرية (الخيالية) وادوات الاتصال المادي للانتقال خيالياً في ارجاء هذا الكون الرهيب الواسع الارجاء .

ومع ذلك فجميع المصطلحات تشترك بصفة عامة هي كونها قصصاً اسطورية وهمية متخيَّلة (محبوكة : منسوجة) بمعنى انها ليست حقيقية او تاريخية او واقعية : وان كان بعضها ممكن الحدوث وقابل للتصريف في بعض الاحيان .

- ٣ -

يحتل ادب قَصَص - بفتح القاف والصاد الاولى - Seience Fiction منزلة اجتماعية مرموقة في المجتمع المتقدم الحديث لدى علماء الطبيعة وبخاصة الرياضيات والفيزياء ولدى الادباء وعلماء النفس البارزين . وقد تطورَّ ادب قَصَص الخيال العلمي تطوراً مذهلاً منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وتعددت موضوعاته وتشعبت اغراضه وانتقل من الادباء ذوي النزعة العلمية في الاصل الى علماء الرياضيات والفيزياء . بالاضافة بالطبع الى الادباء الذين انغمروا فيه منذ البداية - وفي مقدمتهم الاديب البريطاني المشهور ايج جي ويلز .

ومع ان جانب التحليق الخيالي في الفضاء الكوني الرهيب كان الموضوع الاول والاهم والاقدم لادب قَصَص الخيال العلمي إلَّا أن موضوعات اجتماعية (اخلاقية وسياسية) بدأت تهيمن على ادب قصص الخيال العلمي منذ اربعينيات هذا القرن وأخذت تمد التحليق في الفضاء الكوني بمادة اجتماعية ذات محتوى يهم جميع الناس .

- ٤ -

يشترك ادب قَصَص الخيال العلمي مع الادب القصصي المعتاد - وبخاصة الخيالي منه - في كونه يسعى نحو تحقيق ما يتعذر تحقيقه بالفعل من جهة وفي كونه يتعامل مع ما هو غير موجود من الناحية الواقعية تعاملا يستند الى الخيال . غير ان هذا النمط من الادب العلمي الجديد ينفرد بكونه يُضِع (بضم الياء وكسر الضاد) الخيال الادبي لمنطق العلم او يخضع منطق العلم للخيال الادبي . ومع ذلك - وربما بسببه - فان ادب قصص الخيال العلمي - (من ناحية التنبؤ العلمي) لا يُعبِّر عن نفسه عن طريق الرموز والمعادلات الرياضية - كما هي الحال في العلم المحض - بل عن طريق الصُوَر الذهنية الحسية البصرية الزاهية التي تتصف بالأناقة والجمال الفني . ومن هذه الزاوية يمكننا ان نشير هنا الى ان ادب قَصَص الخيال العلمي يتصف (بالدرجة الاولى والاهم) لكونه نمطاً منظما تنظيماً علمياً من انماط الادب الخيالي او لكونه - بتعبير آخر - نمطاً منظَّماً تنظيماً أدبياً من انماط الخيال العلمي - معنى هذا : ان ادب قَصَص الخيال العلمي - بخلاف أنماط الادب الأُخَر - يحتفظ بطابعه العلمي مع كونه ايضاً في الوقت نفسه يحتفظ بالطابع الادبي الذي يعبِّر عن نفسه بالاناقة والجمال وسعة الافق الاجتماعي وفي تقصيه للعلاقة بين الفرد والمجتمع الامثل الممكن التحقيق في المستقبل البعيد : وهي امور لا مكان لها في العلم المحض .

- ٥ -

يستطيع المرء ان يقول - بعد التحليل الدقيق - ان ادب قصص الخيال العلمي هو ادب واقعي في الاصل من ناحية محتواه ونقطة إنطلاقه من جهة وانه ادب رومانتيكي من ناحية الغاية القصوى التي يسعى الى تحقيقها من جهة اخرى - ومن هذه الزاوية فهو يرتبط اوثق الارتباط بالادب الواقعي والادب الرومانتيكي من ناحية كما انه - في الوقت ذاته - وثيق الصلة بالعلم النظري والتكنولوجي من ناحية اخرى .

اما الاتجاه العام للمختصين بادب الخيال العلمي الأفذاذ - منذ ستينيات هذا القرن - فهو السعي نحو تحقيق المجتمع الافضل لجميع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ومناطقهم الجغرافية . وهذا هو الذي يحببه الى جمهرة القراء ويجعل المختصين به علماء طبيعيين بارزين وادباء كبار تحرروا من ولاءاتهم الطبقية ومن العنعنات السائدة في مجتمعاتهم .

كما انه ايضاً يفتح امام المعنيين به من كبار المختصين وجمهرة القراء آفاقاً رحبة فكرية وعاطفية يتعذر تحديد مداها .

- ٦ -

يتصف ادب قَصَص الخيال العلمي - ولا نقول ينفرد - بصفتين متميزتين ومتلاحمتين في آن واحد هما :

من ناحية المحتوى او المضمون : الجانب السلبي (الضمني او غير المباشر احياناً) الذي يتناول الجوانب السلبية الشائعة في المجتمع الحديث من جهة والجانب الايجابي المتمثل في المجتمع البديل (الخيالي) الامثل من جهة اخرى .

كما يتصف ادب قَصَص الخيال العلمي ايضاً بصفتين اخريين من ناحية الاسلوب - هما :

الوصف الموضوعي الواقعي للأحداث (مع المبالغات الادبية المعروفة الموشاة بالمجاز) من ناحية والوصف الخيالي الرومانتيكي ايضاً للمستقبل الافضل من ناحية ثانية - وهذا واضح بالدرجة الاولى والاهم في الاتجاه الحديث المسمى « الموجة الجديدة » The New Wave التي ظهرت في الولايات المتحدة بالذات في ستينيات هذا القرن .

وهذا يعني - بعبارة اشمل - ان الواقع الذي يستمد منه أدب قَصَص الخيال العلمي جذوره ليس واقعاً جامداً او خامداً (كما هي الحال في الادب الواقعي الصرف) بل هو واقع ديناميكي صاعد متطور بصورة عديمة الانقطاع .

وهو يمر - اثناء حركته الصاعدة ابداً الى الاعلى والى الامام - بمراحل ثلاث متتابعة ومتبادلة الاثر هي : الماضي - الذي اصبح حاضراً - والحاضر (الذي سيكون مستقبلا) والمستقبل (الذي كان حاضراً) منظوراً الى ذلك كله من الناحية الرومانتيكية : الفنية الجمالية ومعبرّاً عنه بالاناقة الفنية الجمالية . ومن هذه الزاوية فان الرومانتيكية (الديناميكية) في جزء لايتجزأ من الواقعية في ادب قَصَص الخيال العلمي .

وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان محتوى الصور الذهنية الفنية الخيالية في هذا الطراز او النمط الجديد من الادب العلمي او العلم الادبي وان كان مستمداً في الاصل من العالم المادي المحسوس المحيط إلَّا انه - في الوقت نفسه - يعبر عن الانسان في الزمان والمكان ومختلف في طبيعته عن العالم المحسوس اختلافاً جذرياً حاسماً بفعل كون الشخص المختص بادب قَصَص الخيال العلمي يؤلف - بخياله المجنح - بين عناصره المتباعدة ويضيف اليها من عنده ايضاً ويعبر عنها - بوحدتها .

تعبيراً فنياً انيقاً . اي ان هذا النمط الجديد من الادب الخيالي مطرزٌ بالناحية الرومانتيكية .

وهذا هو الذي يجعل صاحبه سابقاً لزمانه من ناحية تصوره الذهني للمستقبل الافضل (الذي هو بنظره ممكن التحقيق في معالمه الكبرى لانه ليس طوبائياً بالمعنى الشائع المألوف وليس ميتافيزيقياً من الناحية الفلسفية) : بل هو - في جوهره - الحاضر الماثل للعيان تتجسد فيه (بصورة ضمنية غير مباشرة) الجوانب الايجابية الراهنة في حركتها الصاعدة المتطورة ابداً الى الاعلى والى الامام من جهة وتنتفي فيه الجوانب السلبية التي تعرقل مسيرته الظافرة . فالمستقبل الذي يطمح نحو تحقيقه ادب قَصَص الخيال العلمي - الاصيل بالطبع - هو من هذه الزاوية حاضر « مُنتقى » او « مختار » ومؤجَّل يكمن في رحم الحاضر الراهن . وقديماً قيل :

والليالى من الزمان حبالى
مثقلات يلدن كل عجيب

يتضح اذن ان الحياة في حركتها الدائبة المتدفقة الصاعدة ابداً الى الاعلى والامام على الصعيد البايولوجي والاجتماعي هي في الجوهر ظاهرة واحدة : وان الحاضر ليس هو نتاج الماضي بل هو الحياة اذ تترك الماضي وراءها .

- ٧ -

يجمع ادب قَصَص الخيال العلمي بين معطيات العلم النظري ويستخدم ايضاً منجزاته التكنولوجية للسفر البعيد في هذا الكون الرهيب المترامي الاطراف في الزمان والمكان من جهة وبين معطيات الادب الخيالي من جهة ثانية . اي أنه علم مضمخ بالادب وادب مطرَّز بالعلم يتناول بشكله الراهن قضايا اجتماعية بالغة الاهمية تتعلق بالكون والمجتمع والانسان باسلوب ادبي فني جمالي .

ومن هذه الزاوية يمكن ان يقال :

ان ادب قَصَص الخيال العلمي يدخل في باب الادب المحض من بعض الوجوه ويدخل ايضاً في باب العلم الصرف من وجوه أُخَر . كما ان ادب قَصَص الخيال العلمي يمس علم النفس في الصميم لاستناده الى الخيال . معنى هذا ان ادب قصص الخيال العلمي يخضع في بعض جوانبه للقوانين الادبية كما يخضع ايضاً في جوانب اخرى للقوانين العلمية ولقوانين علم النفس .

وهذا هو الذي يجعل في الاساس الادباء وعلماء الطبيعة وعلماء النفس معنيين جميعاً به كل من زاويته الخاصة ومساهمين ايضاً في انتاجه بهذا الشكل او ذاك . ومن الملاحظ ان بعض كُتّاب ادب قَصَص الخيال العلمي الافذاذ يجمع بين الجوانب الثلاثة : الادبية والعلمية والسايكولوجية : كأن يكون عالم فيزياء او رياضيات في الاصل او عالم فلك واديباً بارزا وذا المام واسع بعلم النفس .

- ٨ -

هناك انماط متعددة من ادب قَصَص الخيال العلمي من ناحية المحتوى الذي يحمله ومن ناحية الغرض الذي يرمي الى تحقيقه وان كان متعذراً ان نفصل فصلاً تاماً ومطلقاً بين محتوى قَصَص الخيال العلمي وبين الغرض الذي يرمي الى تحقيقه وذلك لوجود التلازم بينهما رغم كونهما يتميزان عن بعضهما بوضوح وذلك بطغيان هذا الجانب على ذاك الجانب احياناً او بالعكس .. كما انه يتعذر ايضاً ان نفصل فصلاً تاماً ومطلقاً بين أنماط قَصَص الخيال العلمي - التي سيأتي ذكرها - وذلك لترابطها الوثيق .

والانماط المشار اليها كثيرة تصعب الاحاطة بها من ناحية التفاصيل المتعددة والمميزات الثانوية الكثيرة . غير ان ملامحها الكبرى تجعل ممكناً النظر اليها - لغرض التبسيط والايجاز - في مجاميع مترابطة ومتلازمة أيضاً ومن هذه الانماط مثلا النمط المرتبط بالاساطير والقصص الخرافية . ومنها أيضاً النمط المتعلق بالقصص الرومانتيكية (الخيالية) .

ومنها ايضاً - وهو أبرزها وربما أقدمها واوسعها إنتشاراً - نمط الخيال العلمي التكنولوجي (السفر بين الكواكب والاجرام السماوية : السفر من الارض في هذا الكون الرهيب والعودة اليها (خيالياً بالطبع) .

ومنها ايضاً - وهو احدثها واهمها بنظرنا وهو الذي استأثر بالنصيب الاوفر من مقالتنا الموجزة هذه - النمط الاجتماعي (الفلسفي) .

والانماط المشار اليها متكاملة ومتبادلة الاثر بحيث يتعذر وضع حد فاصل بينها . وهي جميعاً مستمرة في الاصل من الواقع الذي ينطلق منه المعني بادب قصص الخيال العلمي للوصول (خيالياً) الى بديله الاكمل والابعد والاوسع مدى الذي هو - بعد التحليل الدقيق - حصيلة او ثمرة او نتاج الجميع او التأليف بين عناصر كثيرة متباعدة في الزمان والمكان بهيئات غريبة غير مألوفة . ومع ذلك فان الشيء الذي لا يرقى اليه الشك هو أن ادب قَصَص الخيال العلمي هو في جوهره اداة خيالية لدراسة الواقع دراسة تفصيلية واقتراح البديل الامثل من الناحية الجمالية . وهذا يعني - بعبارة اخرى - ان ادب قَصَص الخيال العلمي بانماطه المتعددة التي اشرنا الى اهمها اداة ادبية - علمية خيالية لرفع مستوى الواقع المحسوس (عبر الخيال) الى مستوى اعلى من الرقة والاناقة .

- ٩ -

وفي ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول : ان ادب قَصَص الخيال العلمي تَعَّرض منذ نشوئه بشكله المتبلور في مطلع هذا القرن لعملية تطور أو ارتقاء (شأنه في هذا شأن جميع مظاهر المجتمع والفكر) . واخذت - في الوقت نفسه - اهميته بالتعاظم بمرور الزمن وذلك بتعدد ميادينه (التكنولوجية والاجتماعية والسايكولوجية والايديولوجية) ولتباين المختصين به من علماء رياضيات وفيزياء وعلماء فلك وادباء وشعراء بارزين منتشرين في الدول المتقدمة بصورة خاصة على اختلاف انظمتها السياسية والاقتصادية وبخاصة في الولايات المتحدة وانكلترة وفرنسا والاتحاد السوفيتي . ولعل ميدانه الاكثر تبلورا في الوقت الحاضر هو تناوله قضايا عالمية اجتماعية ملحة وبالغة الاهمية بأسلوبه الخيالي القصصي الخلاب وبميله الجامح نحو تحقيق ما يبدو مستحيلا لعوامل ايديولوجية ضيقة .

- ١٠ -

هناك بالطبع جوانب كبيرة وكثيرة يختلف عليها رواد ادب قَصَص الخيال العلمي من حيث نظرة كل منهم الى المستقبل ومن ناحية وظيفة او رسالة ادب قَصَص الخيال العلمي فيما يتصل بطبيعة المجتمع الافضل كما يراه . وهذه امور متوقعة مردُّها في الاصل التاريخي الى اختلاف المجتمعات في انظمتها السياسية والاقتصادية وفي تقاليدها وعنعناتها التاريخية . وهناك ايضاً جوانب مشتركة تنظر الى النوع الانساني نظرة موضوعية وشاملة وتدعو الى التعاون والمحبة وشجب الظلم والاضطهاد والتعصب الذميم . وهذه النزعة الانسانية بدأت تتبلور منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

اما ابرز كُتّاب ادب قَصَص الخيال العلمي الذين يمثلون النزعة الانسانية المشار اليها - وهم كثيرون - فهم بنظرنا : آرثر كلارك في انكلترة الذي يعيش في سيرلانكا في الوقت الحاضر وروي براد بري في الولايات المتحدة والشقيقان السوفياتيان أركادي وبورس ستروكاتسكي .

وقد تناول هؤلاء بحكمة واصالة مشكلة الانسان المعاصر من جميع الوجوه .

ولابد من الاشارة في ختام هذا الحديث الموجز الى ان المرأة بدأت ايضاً بالمساهمة الايجابية الفعَّالة في السنوات القليلة الماضية في ادب قَصَص الخيال العلمي في الولايات المتحدة بالدرجة الاولى والاهم .

وفي مقدمة هؤلاء النسوة الكاتبة الامريكية (ازابلا ليكون) التي تناولت في رواياتها المتعددة والممتعة قضايا ذات محتوى اجتماعي اضفت عليها طابعاً فضفاضاً من خيالها الخصيب واسلوبها الانيق . ومع ان هذه الكاتبة اللامعة بدأت بممارسة ادب قَصَص الخيال العلمي في فترة متأخرة نسبياً عن زملائها الرجال إلَّا ان نتاجها في هذا الباب يفوق - بنظر اصحاب الاختصاص - كثيراً من نتاج الرجال .